محاضرات في أدب المركز والهامش 2019-2020

المحاضرة الثانية – الكوجيتو وبذور الذات الغربية

ينطلق ديكارت لاثبات الوجود بصفة عامة ووجود الذات بصفة خاصة من الشك، والشك الديكارتي هو نفي أو شك في أي وجود غير وجود "الأنا المفكر " بوصفه اليقين الوحيد الذي صمد أمام أقوى الشكوك (هذا الشك ينبني أساسا على الشك في كل ما يأتي من الحواس مادامت هذه الاخيرة تستطيع خداعنا) من هنا سيكون الجوهر المفكر هو مصدر كل يقين . ووجود الموجودات الأخرى(العالم والغير والله ...) مرتبط بالذات.أي أن هذه الموجودات لايمكن الاعتراف لها بالوجود إلا من خلال الحدس والاستنباط العقلي للأنا يقول ديكارت :"أنظر من النافدة فأشاهد بالمصادفة رجالا يسيرون في الشارع فلا يفوتني أن أقول عند رؤيتهم أني أرى رجالا بعينهم مع أني لا أرى من خلال النافدة غير قبعات ومعاطف قد تكون غطاء لآلات صناعية تحركها لوالب ,ولكني أحكم أنهم أناس فانا أدرك بمحض ما في ذهني من قوة الحكم ما كنت أحسب أني أراه بعيني."هكذا يصبح وجود الغير مرتبطا بقدرة الذات على الحكم أو الاستدلال أي أن الغير ليس إلا حدسا عقليا أو استنباطا تقوم به الذات مما يجعل الغير مجرد افتراض ذهني أو انطباعات أو صورة ذهنية وبالتالي يجعل وجود الغير مجرد تخمين مشكوك فيه أي محتمل وجائز فقط. ويجعل الذات الديكارتية ذات معزولة عزلة مطلقة(وحدانية الذات.) وهذا التصور يدفعنا إلى التساؤل إذا كانت الأنا هي الضامن لكل يقين ,فكيف أجد في ذاتي الحجج و الأدلة على وجود الغير والحال أن إدراك وعي آخر لايمكن أن يتم إلا بطريق مباشر (من الداخل) فكيف يمكن ذلك إذا كان هذا الوعي أو الذات خارجية عني ؟

–التمحور حول الذات:

كان لهذا الملمح جذوره في الفكر الاوربي منذ عصر النهضة، حيث كان التركيز على الفردية وتأكيد الذات، ومنذ ان قال ديكارت: (أنا أفكر فأنا موجود)[1]، كان الالحاح على (الانا) و(الفرد) الذي يشعر بوحدانيته وجبروته، وسقط الآخرون من الميزان، وكان أن أصبح الإنسان مركز كل شيء ومقياساً لكل شيء، وتحول مركز الكون من الله إلى الإنسان في تكوين الوعي الاوربي الحديث.

ومن هذه المركزية كان فهم الكون، وكان تقويم الآخرين، فالغرب هو محور الدنيا كلها، والعالم كله والآخرون معه أطراف للمركز الاوربي، ومن هنا كانت الهيمنة الاوربية والاستعلاء الاوربي. ومن هنا كانت دراستهم لتاريخ الحضارات الانسانية. فالتاريخ عندهم يبدأ في اوربا، والعصور الانسانية تبدأ في أوربا، فهي تقسم إلى ثلاثة عصور: العصور القديمة والوسطى والحديثة.

---

[1] René Descartes, Discours de la Méthode, Éd. Hatier, coll. Classiques Hatier de la philosophie, Paris, 1999, pp. 36-37.

-ديكارت والذات العارفة:

تعنى ميتافيزيقا ديكارت بالذات العارفة التي تقرر الوجود أكثر مما تهتم بالموضوع الذي يمكن أن يعرف، وما دام لا يستطيع أن يحدد الميتافيزيقا من جهة الموضوعات الي تتناولها، فلا بد أن يميزها بعلامة ذاتية تحمل طابع الذات العارفة، ولهذا فإن الميتافيزيقا عنده أشد العلوم يقينا. تقوم فلسفة ديكارت في مجملها على البرهنة أولا أن الذات الإنسانية جوهر مفكر ، وهذا يقتضي أن يكون ثمة خالق لها ، يتصف بالديمومة والكمال ، وهو الله عز وجل ، والذي تهتدي له هذه الذات بواسطة العقل يقول ديكارت : "إذا أردنا أن نفرغ لدراسة الفلسفة دراسة جدية والبحث عن جميع الحقائق التي في مقدرونا معرفتها وجب علينا أن نتخلص من أحكامنا السابقة ، و أن نحرص على اطراح جميع الآراء التي سلمنا بها من قبل وذلك ريثما تنكشف لنا صحتها بعد إعادة النظر فيها ، وينبغي أيضا أن نراجع ما بأذهاننا من تصورات ، و ألا نصدق منها إلا التصورات التي ندركها في وضوح و تميز ، وبهذه الطريقة نعرف أولا أننا موجودون باعتبار أن طبيعتنا هي التفكير ، و نعرف في الوقت نفسه وجود إله نعتمد عليه ، وبعد أن ننظر في صفاته نستطيع أن نبحث عن حقيقة الأشياء الأخرى جميعا نظرا إلى أنه هو علتها[2]."

ينبغي أولا البرهنة على أن الذات الإنسانية جوهر مفكر، وبما أنها كذلك، فالأمر يقتضي خالقا لها، وبالوصول إلى معرفة الخالق يدشن الطريق أمام الإنسان للبحث في كل شيء، لأن علة كل شيء هو الله .يبدأ المسار المنهجي في فلسفة ديكارت متدرجا بدءا بإثبات الذات أولا، ثم إثبات الله ثانيا، وأخيرا إثبات العالم. فالخطوة الأولى إذن هي إثبات الذات، وذلك لا يتم إلا بطرح الأفكار الموروثة والشك في كل ما تعرض له الحواس لأن إمكانية الخطأ موجودة فيها. فكل شيء لا يمكن إثباته إلا الفكر الذي يقوم الآن بعملية الشك، فهو الذي لا ينفصل الآن عن الذات التي تمارس الشك، فالذات موجودة ما دامت تفكر، إذن فما الإنسان إلا شيء مفكر . وفي إثبات الله، يبحث ديكارت في الله وأنه موجود، قائلا: "أقصد لفظ الله جوهرا لا متناهيا، أزليا، منزها عن التغيير، قائما بذاته، محيطا بكل شيء، عالما بكل شيء، قادرا على كل شيء. ... فلا بد إذن أن نستخلص من كل ما قلته من قبل أن الله موجود، لأنه وإن كانت فكرة الجوهر موجود في نفسي من حيث إنني جوهر، إلا أن فكرة جوهر لا متناه ما كانت لتوجد لدي أنا الموجود المتناهي إذا لم يكن قد أودعها في نفسي جوهر لا متناه حقا[3]". ينتقل بعد ذلك إلى معرفة العالم جاعلا من معلافة الله وسيلة إلى ذلك، إذ يقول: "أستطيع أن أتقدم في سيري إلى الحقائق، وأستطيع بادئا من الذات المفكرة ومن كمال الله الذي يضمن لي صدق الأفكار الواضحة، أن أثبت يقين العالم الخارجي (عالم الأعيان) وأن أطمئن إلى معظم الأشياء التي شككت فيها من قبل. إذن ما أجده في نفسي من ميل قوي إلى الاعتقاد بوجود العالم مصدره الله تعالى الذي هو الموجود أو الكائن الكامل والذي لا يمكن أن يخدعني أو يوقعني في الضلال[4]".

---

[2] ديكارت، مبادئ الفلسفة ، ترجمة عثمان أمين، القاهرة، دار الثقافة، ص.106

[3] المرجع نفسه، ص.152.153

[4] إبراهيم، عبد الله، المركزية الغربية: إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص.92-93